الفصل السادس

من أحرار الفكر فى الإسلام

اقتــرح علىَّ الأســتاذ الكبيــر محمد عبد الغنى حســن أن أختم كتابى هذا «حرية الفكر فى الإسلام» - بذكر بعض أحرار الفكر من المسلمين، ليكون فى هذا الكتاب مسك الختام.

فرأيت هذا مــن الصديق الكريم رأيًا حســنًا، وتوجيهًا كريمًا، يزيد من شأن الكتاب، ويؤيد ما عنى به من إثبات حرية الفكر فى الإسلام.

وهــؤلاء هــم الذين وقع عليهــم اختيارى من أحــرار الفكر فى الإسلام.

(١) عثمان بن عفان.

(٢) خالد بن يزيد.

(٣) عمر بن عبد العزيز.

(٤) المأمون.

(٥) يحيى بن أكثم.

(٦) أبو العلاء المعرى.

(٧) ابن رشد.

(٨) نصير الدين الطوسى.

(١) عثمان بن عفان

كان شـابا حين ظهر الإسـلام فـى مكة يدعو إليـه النبى ﷺ، فلم يكن يجاوز الخامسـة عشـرة من عمره حين بدأت هذه الدعوة الجديدة.

وكان من بيت رفيع من بيوت بنى أمية، وهم رؤسـاء قريش فى الجاهلية، وأرباب الغنى والجاه فى مكة، والمحافظون على التقاليد القديمة لطبقة السـادة والأشـراف، مما يحفظ لهم امتيازاتهم على طبقـة العامة، ويؤثرهم بمظاهر السـيادة، فلا تطمح نفوس العامة إلى مظاهرهم، ولا تتطلع إلى ما استأثروا به عليهم.

وفى كل من هذا وذاك ما يبعد هذا الشاب عن التأثر بهذه الدعوة الجديـدة، وما ينفره مـن الانضمام إلى من انضم إليها من شـباب مكـة، أكثرهم من طبقة العامة التى هى دون طبقته، وبينهم كثير من الأرقام الذين سـوت هذه الدعوة الجديدة بينهم وبين سادتهم، فجذبتهم بدعوتها إلى الحريـة، ليكون لهم من الحقوق فيها مثل ما لغيرهم.

وفـى هذا ما يبين مقدار ما كانت تتمتع به شـخصية عثمان من قوة التفكير الحر، وأنها بلغت فى هذا ما لم يبلغه غيره من أولئك الشـباب الذين نفروا من تلـك التقاليد القديمة التى تضع من منزلة

الإنسانية، لأن تلك التقاليد كانت ترفع من منزلته على غيره، فكان من مصلحته أن يؤثر البقاء فيها، ولا ينضم إلى دعوة تضيع عليه امتيازاتها.

فلما انضم إلى هذه الدعوة الجديدة، لم يجد فيها من التزمت الدينى ما يجعله يترك العيش الطيب الهنىء الذى نشأ عليه، ويذهب فى التقشف مذهب غيره ممن لم يتهيأ له مثل ما تهيأ له فى نشأته.

فاقتنى من المال الوفير ما هيأ له ذلك العيش الطيب الهنىء، ولكنه كان يتمتع به فى حدود ما أباحته له هذه الدعوة الجديدة من الاعتدال الذى لا تقتير فيه ولا تبذير، وفى حدود ما دعت إليه من السخاء بالمال فى سبيل الله تعالى.

وكان يبلغ فى هذا السخاء مبلغًا لا يتيسر لغيره ممن لم يتوفر له من المال مثل ما توفر له، وإن هذا ليتمثل فى غزوة تبوك حين كان وقتها وقت عسرة شديدة بين المسلمين، فدعا النبى ﷺ أغنياءهم إلى الإنفاق، فأنفق عثمان من ماله ما لم ينفقه غيره، إذ أعطى عشرة آلاف دينار، وثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، وخمسين فرسا بآلاتها، فقال ﷺ: اللهم ارض عن عثمان فإنى راضٍ عنه.

ثم آل إليه أمر المسلمين بعد عمر بن الخطاب، فكان الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين، وهو من هو فى قوة التفكير الحر، وغالبًا ما يكون المفكرون الأحرار أصحاب أفكار لا أصحاب أقوال،

فلما بويع بالخلافة صعد المنبر ليخطب فيمن بايعوه، فارتج عليه القـول، فقال لهم: أنتم إلى خليفة فعـال، أحوج منكم إلى خليفة قـوال. ويالها من خطبة قصيرة أجمـع بما لا يقدر من تلك الخطب الطويلة.

ثم قام بأمور الخلافة على ما يوافق ما اختاره لنفسه فى إسلامه ممـا ورثه عن آبائه، من حب لظهور آثار النعمة عليه، عملا بقوله تعالى فى الآية الأخيرة من سـورة الضحى: الآية ١١ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾، وكان أولـو الأمر قبله قد أخذوا المسـلمين بمظهر النسك، فآثروا لهم التقشف فى الدنيا، لأن المال لم يكن متوفرًا فى أيديهم، ولأن نفوسهم كان فيها ميل إلى هذا التقشف.

فلما جاء عهد عثمان وأخذت أموال الفتوح تنهال على المسلمين، أبـى له تفكيره الحر أن يجمد بالمسـلمين على مـا كانوا عليه من مظهر التقشـف، وقد تغيرت الظـروف، وتبدلت الأحوال، ولكل ظرف ما يلائمه، ولكل حال ما يناسبه.

فبدلهم من زى النسـك إلى زينة الملك، وإن كانت خلافة أشبه بعهـد النبوة، ولم تكـن ملكا يؤثر زينة الدنيـا على الآخرة، لأن المذموم فى الإسلام هو هذا الإيثار، لا أن يعمل الإنسان للآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا.

ثم بدأ بنفسـه ليكون للناس قدوة به، فاتخذوا له دارًا بالمدينة بناها بالحجر والكلس[1] وجعل أبوابها من الساح والعرعر، واقتنى

(١) هو ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما، ويتخذ منها بإحراقها.

الأموال والجنان والعيون بالمدينة وغيرها، وكان يأكل لين الطعام، ويلبس أفخر الثياب، ويشد أسنانه بالذهب، واقتدى به غيره من كبار الصحابة وغيرهم، حتى اتسع عمران المدينة، وانتقلت إلى مظهر جديد يليق بما صارت إليه الدولة الإسلامية من العظمة، بل تغالى بعض سكانها فى مظاهر الحضارة إلى أنواع من اللهو واللعب، مثل طيران الحمام والرمى على الجلاهقات - جمع جلهق وهو البندق يرمى به الطير - فاستعمل عثمان عليها رجلا من بنى ليث، فقصها ورمى الجلاهقات، ثم أخذ عثمان من تغالى فى ذلك بالشدة، فكان يضرب بعضهم، وكان ينفى بعضهم إلى الشام، لتكون حضارة الدولة حضارة إسلامية فى حدود ما أباحه الله تعالى من الزينة، وكان ما فعله عثمان من ذلك ضروريًا فى عهد الخلفاء الراشدين، حتى لا يفهم الناس أن الإسلام محض تقشف، ولا يتسع لوسائل الحضارة.

وكان أيضًا من أثر التفكير الحر لعثمان جمعه المسلمين على مصحف واحد، وكتابته لنسخ منه وزعها على الأمصار الإسلامية ليجتمع الناس عليها، ولولا ما امتاز به من التفكير الحر لترك المسلمين فى هذا على ما كانوا عليه، ولم يغير شيئًا مما كان قبله، ولا يعلم إلا الله ما يكون حال المسلمين لو ترك المصحف للناس يذهب كل واحد منهم إلى ما يراه فى كتابته، ويتبع فى هذا ما تمليه عليه لهجته، وكانوا على لهجات مختلفة لا تحصى،

وكان بعضهم يكتب بين سطوره بعض ما يراه فى تفسير ما يحتاج إليه من تفسيره، فأضافه بعضهم إلى القرآن، وكان سببًا فى قراءات كثيرة شاذة مخالفة لهذا المصحف الجامع.

فهذا التفكير القوى الجرىء هو الذى جعل عثمان يقدم على ما أقدم عليه من ذلك، وكان أبو بكر قد جمع القرآن قبله فى صحف لم يتخذ منها مصحفًا جامعًا، ولم يقصد هذه الغاية من جمعها حتى يستوفى كل ما يلزم لها، ثم وضعها فى البيت بعض أمهات المؤمنين، بحيث لا يراها الناس ولا ينتفعون بها، وقد انتفع بها عثمان فى هذا المصحف الجامع، ولولاه لظلت مهملة فى ذلك البيت إلى أن يأتى الزمان عليها، فلما تم لعثمان من هذا المصحف ما تم، مضى تفكيره القوى الحر الجرىء إلى آخره، فرد هذه الصحف بعد أن جمع مصحفه منها إلى مكانها، ثم جمع كل من معه مصحف فأخذ منه، ومن أبى أخذ منه مصحفه بالقوة، ثم أحرق ما جمعه من هذه المصاحف لما سبق من أمرها، فلم يبق للمسلمين إلا هذا المصحف الجامع، فاجتمعت كلمتهم جميعًا عليه، وصار رمز وحدتهم إلى ما شاء الله تعالى.

ويكفينا فى تفكير عثمان هذان المثالان من آثار تفكيره الحر، وكانت وفاته سنة ٣٥هـ - ٦٥٥م.

* * *

(٢) خالد بن يزيد

هـذا فتى أموى آخر هو الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سـفيان، وتفكيره الحر يشـبه إلى حد ما تفكيـر عثمان بن عفان، ولا غرو فى هذا فهما أمويان صميمان، فكل منهما اتجه فى تفكيره نحو تغذية الإسلام والمسلمين بمظاهر الحضارة التى سبقت شعوب الحضـارة إليهـا، وتأخر العـرب عنها للبداوة التـى كانت غالبة عليهـم، ولم يكن لهم بد من السـير فى سـبيلها مثل غيرهم، ولم يكـن لهم بد من مثل عثمان بـن عفان وخالد بن يزيد فى تفكيرهما القوى الحر الجرىء، وكان ما أتى به خالد متمما لما أتى به عثمان من وسائل هذه الحضارة، وكان جده معاوية قد مضى إلى حد ما فى هذا السـبيل أيضا، وقد هيأه له طول عهده بالشام، ومجاورته فيه لمظاهر حضارة الروم.

وقد نشـأ خالد بالشـام وتربى بين مظاهر الحضـارة، فلم يكن لـه بد من التأثر بهـا، ولم يكن له بد من الأخـذ ببعض مظاهرها النافعة، ليدخل بين المسـلمين مذهبا جديدا فى الحضارة ينهض بهم، ولم يكن لهم بد من سـلوك لبقاء دولتهم، وبنائها على أسس سـليمة من العلوم التى لا غنى عنها فى بنـاء الدولة، لتكون دولة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، ولتستحق أن يكون لها تاريخ بين

الدول المتحضرة، وكان بهذا أول مسلم تنبه إلى حاجة المسلمين من هذه الناحية، وإن سبقه جده معاوية فى فرع ضيق منها، وهو علم التاريخ من هذه العلوم، وقد استقدم لأجله عبيد بن شرية من صنعاء باليمن، وأمره بوضع كتاب فى علم التاريخ، فوضع له كتاب «الملوك وأخبار الماضيين».

فمال خالد إلى علوم الفلسفة التى رآها نافعة للمسلمين، ولازمة لبناء حضارة جديدة لهم، بعد أن وجههم الإسلام نحو الحضارة، وأزال عن العرب صفة البداوة. وضم إليهم أمما كثيرة من الأمم التى سبقتهم فى الحضارة ومذاهبها، وفى العلوم التى لا تنهض الحضارة إلا بها، ففتح باب هذه العلوم لمن يأتى بعده، ولولاه لاقتصرت نهضة المسلمين على العلوم الدينية والعربية التى اقتصر رجال الدين وأشباههم على الاشتغال بها، وكانوا متزمتين جد التزمت من ناحية العلوم الفلسفية التى اشتغل خالد بها، ونسوا أن النبى ﷺ كان يقدر معاصرا له اشتغل بهذه العلوم، وبرع فى علم الطب منها، فكان يأمر أصحابه بالتداوى عنده، وهو الحارث بن كلدة من أهل الطائف.

ولما كان لأمة اليونان فضل السبق إلى تدوين علوم الفلسفة، فقد توجه خالد نحو علوم هذه الأمة العظيمة، وبذل ما بذل من المال فى نقل كثير من كتبها إلى اللغة العربية، وكانت علوم هذه الفلسفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: إلهيات وطبيعيات ورياضيات.

فابتعد عن نقل القسم الأول من هذه العلوم، لأنه رأى فيما جاء به الإسلام فى علم الإلهيات ما يغنى عن النظر فيها، ولأن بناء الحضارة يتوقف على الطبيعيات والرياضيات، لأنها علوم دنيوية يتوقف عليها بناء الحضارة دون إلهيات هذه الفلسفة.

جمع خالد حوله المشتغلين بهذه العلوم من اليونانيين وغيرهم، مثل اصطفن الإسكندرى، ومريانوس من الرهبان، وأمرهم بترجمة كتب الطب والنجوم والكيمياء من اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية، فنقلوها له كما أراد منهم، ثم جد فى الاشتغال بها حتى برع فيها، وكان أعلم قريش بفنون العلم، بل كان نسيج وحده فى هذه العلوم من بينهم، وكان له بها ثقافة جديدة لم تتوفر لواحد منهم، جمع بها بين ثقافة الإسلام وغيرها من الثقافات الأجنبية، وضرب بهذا أروع مثل للتحرر الفكرى بين المسلمين، وكان هذا فى زمن مبكر لم يكن أحد من المسلمين يتجه فيه نحو هذه الثقافة الأجنبية، ويفكر فى حاجة المسلمين إلى تكميل ثقافتهم بها، بل كان جمهورهم يرى أن ثقافتهم الإسلامية الخالصة لا تحتاج إلى ثقافات أخرى، ويرى أن هذه الثقافات تضرها ولا تكملها، وهذا مما يشهد لخالد بأنه بلغ فى تحرره الفكرى مبلغًا لم يصل إليه معاصر له، ولو كان كثير بين المسلمين فى ذلك العصر من أمثاله فى تحرره الفكرى لكان لهم الآن وضع غير هذا الوضع الحاضر، ولكانوا أسبق إلى الحضارة الحديثة من أمم أوربا فى عصرنا.

وكان خالـد بصيرا بعلمى الطب والكيمياء متقنًا لهما، وله كلام فـى صناعتها يدل علـى مقدار ما بلغه فيهما، وله رسـائل مدونة تـدل على كمال معرفته وبراعته، وكان الراهب مريانوس أسـتاذه فى صناعة الكيمياء، وقد وضع فيها رسـائل مدونة، ومنها رسالة تتضمـن ما جرى له مع هذا الراهب فى هذه الصناعة، وتبين صورة تعلمه لها منه، والرموز التى أشار إليها فيها.

وله أيضًا فى صناعة الكيمياء أشعار كثيرة مطولات ومقطوعات، تدل على حسـن تصرفه وسـعة علمه بهذه الصناعة، كما تدل على أنه كان فى عصره شـعر تعليمى عربى، وعلى أنه لم يتأخر ظهروه إلى الدولة العباسية كما هو مشهور.

وقد ذكر ابن النديم فى كتاب - الفهرسـت - أنه رأى له شعرا كثيرا فى هذا المعنى يبلغ نحو خمسمائة ورقة، وأنه رأى من كتبه (الحرارات) وكتاب (الصحيفة الكبير) وكتاب (الصحيفة الصغير) وكتابـا يتضمن وصيته إلى ابنه فى الصنعة - صنعة الكيمياء - إلى غير هـذا من كتبه وآثـاره الدالة على مقدار تحـرره الفكرى بين المسـلمين فى ذلك العصر المبكر، وعلـى أنه كان نادرة بينهم فى ذلك العصر.

وكان وفاته رحمه الله سنة ٨٥هـ - ٧٠٤م.

* * *

(٣) عمر بن عبد العزيز

هذا أمـوى ثالث من أحرار الفكر أيضًا، هو عمر بن عبد العزيز ابن مروان بن الحَكَم نشأ فى بيت الملك من بنى أمية، فورث عنهم بعض ما ورثه عثمان بن عفان، وخالد بن يزيد بن معاوية، وكانت أمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فورث شيئًا من جهتها أيضًا، وكان لها أثرهـا فى نزعته الحرة التى حفظهـا التاريخ له، وكان المسلمون فى أشد حاجة إليها، وبعد أن أخذوا بالظلم والطغيان من ملوك بنى أمية، إذ قضوا على عهد الشورى بينهم، واستبدوا بشئون الملـك وحدهم، وكان لها أثرها أيضًا فى صلاحه وحبه للعدل، كما كان للبيـت الأموى أثره فى إيثاره للتنعم على التقشـف فى الدين قبل أن يصير إليه الملك، حتى أنه كان يشترى الحلة بألف دينار، فإذا لبسها استخشنها ولم يلبسها، وقد خفف من هذا بعد أن صار إليه الملك، ولكنه كان فيما يتعلق بأمر نفسـه وأهل بيته فقط على ما سـيأتى، ولم يكـن لضيق دينى يقضى على مظهـر الحضارة فى الدولة، وإنما كان لعامل سياسـى أراد به إظهار التعفف عن أموال المسلمين، لأن بنى أمية استحلوها لأنفسهم، وأنفقوها فى ملذاتهم وشهواتهم، حتى أفقروا رعيتهم.

وكان عمـر فـى هذه النزعـة الحـرة التى اكتسـبها من جهة أمه، وفى حـدود نزعته الدينية المعتدلـة، يأخذ قومه من ملوك

بنى أمية وأمرائهم بالنصح الرفيق. والموعظة الحسنة، وينهاهم عن الإسراف فى الدماء، ولا سيما دماء من كان له رأى فى الدين أو السياسة ينحرف به عن الطاعة للدولة، كالشيعة والخوارج ومن على شاكلتهم من أصحاب الرأى وإن أسرفوا بخروجهم، فكان ينهى سليمان بن عبد الملك بن مروان فى ملكه قبله عن قتل الخوارج، ويقول له: ضَمِّنْهم الحبس، حتى يحدثوا توبة.

فأتى لسليمان بخارجى فقال له: هيه.

فقال الخارجى له: وماذا أقول؟ يا فاسق ابن الفاسق.

فدعا سليمان بعمر بن عبد العزيز، وقال له: اسمع مقالة هذا. فأعادها الخارجى، فقال سليمان لعمر: ماذا ترى عليه؟ فسكت عمر، فقال له سليمان: عزمت عليك لتخبرنى بماذا ترى عليه؟ فقال عمر: أرى أن تشتمه كما شتمك.

ألا ما أكبره رأيا من عمر يسوى بين ابن عمه الملك وهذا الخارجى شتما بشتم، لا قتلا بشتم.

ألا ما أكبرها حرية يدعو إليها عمر فى حد الاعتدال. لأنه حين ينهى عن قتل الخوارج يرى تضمينهم الحبس حتى يحدثوا توبة، فلم ير إطلاقهم من غير عقاب لا يصل إلى القتل كالحبس، لأنهم يحملون السيف فى الدفاع عن الرأى، ويسيئون الى حرية الرأى بهذا الإسراف فى الدفاع عنه، ولا يعطون لغيرهم من حرية الرأى مثل ما يعطونه لأنفسهم.

وقد ولى عمر بن العزيز الملك بعد سليمان بن عبد الملك بعهد منه، وكان سليمان بمرج دابق فى غزوة له حين حضره الموت، فدعا من كان فى عسكره من العلماء غازيًا ونافرًا، كرجاء بن حيْوة، ومحمد بن شهاب الزهرى، ومكحول، وغيرهم من العلماء وأهل الصلاح، فكتب عهده وأشهدهم عليه، وقال: إذا أنا متُّ فأذنوا بالصلاة جامعة، ثم اقرأوا هذا الكتاب على الناس.

فلما فرغوا من دفن سليمان نادوا: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس،وحضر بنو مروان، واشرأبُّوا للملك، وتشوَّقوا نحوه، فقام الزهرى فقال:

أيها الناس، أرضيتم من سَمَّاه أمير المؤمنين سليمان فى وصيته؟ فقالوا: نعم.

فقرأ الكتاب، فإذا اسم عمر بن عبد العزيز، ومن بعده يزيد بن عبد الملك. فقام مكحول فقال: أين عمر؟

وكان عمر فى أواخر الناس، فاسترجع حين دُعِى باسمه مرتين أو ثلاثا، فأتاه قوم فأخذوه بيده وعضديه، وذهبوا به إلى المنبر، فبايعه الناس جميعًا.

ولكنه راجع نفسه بعد هذا، ورأى أن هذه بيعة فيها شائبة استبداد بالرأى، لأن سليمان وصى به من غير أن يأخذ فيه رأى الناس، وإنما وصى به لأنه أموى مثله، فيكون من بايعه منهم إنما بايعه بتأثير هذه الوصية من سليمان، فرأى أن يرد الأمر إلى الأمة،

لتكـون بيعة فيها كل معانى الحرية له أو لغيره، ولا يكون لوصية سليمان أثر فى توجيهها له.

فلما رأى هذا جمع الناس وصعد المنبر فقال:

أيها الناس، إنى ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه، ولا طلبـة له، ولا مشـورة من المسـلمين، وإنى قـد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم.

فقال الناس: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك، فَلِ الأمر باليمن والبركة.

ولا غرو أن يحظى عمر بهذه الثقة من الأمة، فقد كانت متعطشة إلى من يرد لها حقها المسلوب، ويعيد لها حريتها فى اختيار من تشـاء لحكمها، وفى أخذ رأيها بالشورى فى أمور الحكم، لتقضى علـى عهد أولئك الملوك الطغاة من بنـى أمية، ويكون لها رأى مع من يحكمها.

ولا غـرو بعد هذا أن يـرى بعض العلماء اقتطـاع عهد عمر بن عبد العزيـز من عهـد بنى أمية، لأنه كان خلافـة رحيمة لا ملكا عضوضا، فأولى به الإلحاق بعهد الخلفاء الأربعة الراشـدين: أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ﷺ، لا بعد الطغاة من ملوك بنى أمية.

وقـد حقق عمر بـن عبد العزيـز ثقة الأمة فيـه، فتعفف عن أموالها، وأخذ نفسـه بشـىء من التقشف فى نفسـه وأهل بيته، لأنه رأى من قبله من الملوك أسـرفوا فى الاستئثار بأموال الرعية

حتى صارت إلى الفقر، فأخذ نفسه بهذا المظهر ليعيش مثلها فى فقرهـا، ولكن هذا لم يصل به إلى حـد التنطع، فأبقى على مظاهر الحضارة فى الدولة، وخالف ما أشار به عليه بعض المتنطعين فى الدين من هدم مسجد دمشق، وكان الوليد بن عبد الملك قد بناه آية فـى فن البناء، فضن به عمر بن عبـد العزيز على الهدم، ورأى أن سماحة الإسلام تسع هذا التجمل فى العمران.

ثم عاد العمل بالشورى فى الحكم، فقرب إليه أهلها من العلماء الصالحين، وأخذ يستشـيرهم فـى أمور الدولة، ثـم جعل حكمه للرعية كلها على اختلاف أجناسـها ومذاهبها، وأنصف كل طائفة فيها، حتى جمعها كلها حوله، وجعلها كلها راضية بحكمه.

وكان مـن أشـد المخالفين فى دولـة بنى أمية طائفتا الشـيعة والخوارج، فأرضى الشـيعة بإبطال ما كان به بنو أمية من ذم علىّ ﷺ على منابرهم، وبرد حقوق ذريته التى سلبت منهم إليهم.

وأرضـى الخوارج بأخذهم بالإقناع لا بسـفك الدماء، وقد جاءه بعضهـم حين صار إليه الأمر فقال لـه: رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها المظالم، وسلكت غير سبيلهم، فإن زعمت أنك على هـدى وهم على ضلال فالعنهم وتبرأ منهم، فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق.

فأجابه عمر بـأن لعن أهل الذنوب ليـس فريضة مفروضة لابد منها، ولم يزل به حتى أرضاه وأقنعه برأيه فى عدم لعنهم، وتركه حرًا فيما يراه هو وطائفته فى مذهبهم.

ثم أخذ فى طريق التجديد العلمى، فسار فى الطريق الذى بدأه خالد بن يزيد بن معاوية، وتوسع فى تدوين العلوم ما بين دينية ودنيوية، فابتدأ تدوين علم الحديث، وكان بعض الناس يتورعون قبله عن كتابة الأحاديث، جمودًا فى الدين، وإيثارًا للحفظ، مع أن الحفظ عرضة للنسيان والخطأ، فأذن لأبى بكر محمد بن حزم بتدوين ما حفظ من الأحاديث، فدونها فى كتاب وأرسله إليه، فبعث منه بنسخة فى كل مصر من الأمصار، وكان له بهذا فضل تدوين الحديث فى كتاب، كما كان لعثمان بن عفان فضل تدوين القرآن فى المصحف.

ثم أخذ فى نشر العلوم الفلسفية من الطب وغيره، فاهتم بنقلها إلى اللغة العربية، وكان يقرب إليه من بعض المشتغلين بها، مثل عبد الملك بن أبحر الكنانى، وماسرجيس البصرى وغيرهما، وكان ماسرجيس ينقل من السريانية إلى العربية، وقد نقل لعمر كتاب أَهْرُنَ القَسّ فى الطب.

ولكن عهده لم يدم طويلا حتى يثبت هذا الحكم الحر الذى فقده المسلمون بعد الخلفاء الراشدين، لأنه بويع سنة ٩٩ هـ - ٧١٧ م وتوفى سنة ١٠١ هـ - ٧٢٠ م.

* * *

(٤) المأمون

لم يشتغل أحد من ملوك بنى أمية بعلوم الفلسفة غير الأمير خالد بن يزيد والخليفة عمر بن عبد العزيز، بل أهمل شأنها فى عهد هذه الدولة، فلم يتهيأ للمسلمين استكمال حضارتهم بهذه العلوم، ومضى عليهم قرن كامل فى ثقافة إسلامية خالصة لا تتعدى العلوم الدينية والعربية إلى غيرها من العلوم الأجنبية.

ثم ظهرت الدولة العباسية وفى ملوكها ميل إلى النهوض بالحركة العلمية ورثوه عن جدهم الأول عبد الله بن عباس ﷺ، فبدأ اشتغالهم بالنهوض بهذه الحركة مبكرًا فى دولتهم، وبادر إلى الاشتغال به أبو جعفر منصور ثانى ملوكهم.

ثم جاء المأمون سابع ملوكهم، وهو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور، فأربى على من سبقه من ملوك بنى العباس فى الاشتغال بعلوم الفلسفة وغيرها من العلوم، حتى وصلت النهضة الإسلامية العلمية إلى ذروتها فى عهده، وظهر بين المسلمين أعاظم العلماء من فلاسفة وفقهاء ومحدثين وأدباء ومؤرخين، إلى غيرهم من طوائف العلماء، حتى كانوا أئمة الدنيا فى جميع العلوم، وكانت الدولة العباسية بهذه النهضة العلمية أعظم دولة على وجه الأرض.

وقد أعطى المأمون العلوم الفلسفية جُلَّ اهتمامه، فأقبل على طلبها من مواطنها الأصلية ببلاد اليونان، وأتحف فى سبيلها ملوك القسطنطينية بالهدايا النفيسة، وكانوا قد زهدوا فى هذه العلوم، فأرسلوا إليه ما عندهم من كتب أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان، فاختار لها أشهر المترجمين، وأمرهم بترجمتها إلى اللغة العربية، ثم رغب الناس فى قراءتها بكل وسائل الترغيب، حتى انتشر العلم بها بين المسلمين فى عهده، وصاروا فيها أساتذة العالم، وكانت ترجمته لهذه العلوم ترجمة كاملة، فاستوعبت كل أقسام الفلسفة الثلاثة: من إلهيات وطبيعيات ورياضيات، وتم للمسلمين بهذه الترجمة المستوفية الجمع بين الثقافة الإسلامية الخالصة والثقافات الأجنبية، فمزجوا بين هذه الثقافات على اختلاف اتجاهاتها، وكان لهم من هذا المزج ثقافة جديدة لها طابع يميزها عن ثقافة غيرهم، ويجعلها أوسع الثقافات فى عصرهم.

ثم مضى المأمون فى تفكيره القوى الحر الجرىء، وكان يسمو به على جمهور المسلمين فى عهده على اختلاف فرقهم، من جماعية - أهل السنة - إلى معتزلة، إلى شيعة، إلى خوارج، إلى مرجئة، إلى غيرهم من الفرق الإسلامية لأنه كان يؤمن إيمانا خالصا بالفلسفة وعلومها، ويعلو بتفكيره على ما كان بين هذه الفرق من تعصب للرأى، وضيق فى التفكير، وتزمت فى الدين، ويضرب لهم أروع الأمثال فى تسامحه الدينى بإسناد أمور دولته إلى زعيمين من زعماء

هذه الفرق: يحيى بـن أكثم من الجماعية، وأحمد بن أبى دؤاد من المعتزلـة، وكان فى يحيى بن أكثم مرونة دينية توافق نزعة المأمون فى تفكيره الحر.

وقـد أراد بوحى هـذا التفكير الحر أن يجمع على أساسـه بين هذه الفرق المتعصبة، ليعود المسـلمون إلى ما كانوا عليه من الحرية الفكرية، ولا يكون بينهم من التعصب الأعمى للرأى ما يقسمهم إلى فرق متعادية متباعدة، ومـا يجعل بعضهم ينظر إلى بعض وكأنهم ليسـوا أبناء أمة واحدة، بـل أبناء أمم متعاديـة متحاربة، وكان المأمون يعلم بوحى تفكيره الحر ما سيكون لهذا من سوء العاقبة فى مستقبل المسلمين.

ورأى أن خير وسـيلة لهذا أن يجمع بين رؤسـاء هذه الفرق فى مجالس مناظرة، يسود فيها التفكير الحر على التعصب على للرأى، ويمكن به القضاء على ما بينهم من منازعة ومخاصمة، إن لم يمكن به الوصول إلى جمعهم على رأى واحد يقضى على اختلافهم.

فأمر يحيـى بن أكثم قاضى قضاته أن يجمـع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغـداد، فاختار له من أعلامهم أربعين رجلا، فلما حضروا جلس المأمون لهم، وسأل عن مسائل، وأفاض فى فنون الحديث والعلم بتفكيره الحـر، ليضرب لهم مثلا فى سمو الفكر، ويقضى به على ما بينهم من تعصب الرأى.

فلمـا انفض ذلك المجلس قال ليحيى: يا أبا محمد، إنى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده على إتمامه سببا لاجتماع

هـذه الطوائف على ما هـو أرضى وأصلح للدين: إما شـاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعا، وإما معاند فيرد بالعدل كرها.

ثم مضى فى تفكيره الحر إلى الناحية السياسـية، وكان المسلمون منقسـمين فيها أيضـا، وكان غير مرتاح إلى طريقـة توليه الحكم، لأنها تمت كما يتم غيرها بعد الخلفاء الراشـدين عن بيعة صورية لا أثر فيها لشـىء من الحرية السياسـية، فكان هذا يتعبه ويؤلمه فى نفسـه، ولا يرتاح إليه ضميره ولا يطمئن له، ولكنه كان يخاف إذا تخلـى عن الحكم أن يضطرب حبل الإسـلام، وتنتقض أطرافه، ويغلب الهـرج والفتنة ويقـع التنازع، فتعطل أحـكام الله تعالى، ولا يحج أحد بيته، ولا يجاهد فى سـبيله، ولا يكون هناك سلطان يجمع المسـلمين ويسوسهم، كما صرح بهذا كله وغيره لرجل دخل عليه وسـأله عن حكمه: أصار إليه باختيار من المسـلمين أم بالقوة والمغالبة؟

فأراد أن يريح ضميره من هذه الناحية، وشـرع فيه سنة ٢٠١هـ - ٨١٦م وكان بمدينـة مرو، فجمع خواص أوليائه، فأخبرهم بأنه نظـر فى ولد العباس وولد علـى ﷺ، فلم يجد فى وقته أحدًا أفضل ولا أحق بالأمر من على بن موسـى الرضا، فبايع له بولاية العهد، وضـرب اسمه علـى الدنانير والدراهم، وزوج ابنـه محمدًا بابنته أم الفضـل، وأمر بإزالة السـواد من اللباس والأعلام، وهو شـعار العباسيين، ووضع بدله الخضرة، وهى شعار العلويين.

ولم يفعل المأمون هذا عن تشيع فيه كما هو مشهور، وإنما فعله ليرجع الأمر إلى الشورى كما فى عهد الخلفاء الراشدين، وقد قال لبعض من سأله عنه: إنما فعلت ما فعلت لأن أبا بكر لما ولى لم يول أحدًا من بنى هاشم شيئًا، ثم عمر ثم عثمان كذلك، ثم ولى على فولى عبد الله بن عباس البصرة، وعبيد الله اليمن، ومعبدا مكة، وقثم البحرين، وما ترك أحدا منهم حتى ولاه شيئا، فكانت هذه فى أعناقنا، حتى كافأته فى ولده بما فعلت.

ولكن جذور التعصب بين الفرق الدينية والسياسية كانت أقوى من أن يتغلب عليها المأمون بهذا التفكير الحر القوى الجرىء، وكان المتشددون من الجماعية أشدهم تعصبا عليه، وكانت جماهير العامة من ورائهم مأخوذة بمظاهر تشددهم فى الدين، فأثاروا أهل بغداد على المأمون، ونصبوا إبراهيم بن المهدى عم المأمون خليفة سنيًّا عليهم ولم يكن إبراهيم من طراز المأمون وعلى الرضا فى العلم والفضل، وإنما كان أظهر إجادة للغناء، ولهذا قال فيه دعبل حين بايعوه:

نعر ابن شكلة بالعراق وأهله فهفا إليه كل أطلس مائق[1]
إن كان إبراهيم مضطلعًا به فلتصلحن من بعده لمخارق[2]

وقد تغلب المأمون على هذا الخليفة السنى المغنى بسهولة، ووقع بعد هذا فى فتن شديدة مع متشددى الجماعية، وقد أدركه الموت

(١) شكلة أم إبراهيم وكانت جارية سوداء.
(٢) مخارق مغن معروف.

وهذه الفتن آخذة بخناقه، فلم يصل إلى ما أراد من هذه المآرب الحرة السامية، وكانت وفاته سنه ٢١٨هـ - ٨٢٣م.

* * *

(٥) يحيى بن أكثم

هو العالم السُّـنى العظيم والإمام الكبير الذى شذَّ عن أهل مذهبه ووضـع يده فى يد المأمون، أبو محمد يحيـى بن أكثم بن محمد بن قطن بن سمعان بن مشـنج التميمى المروزى، ينتهى نسبه إلى أكثم بن صيفى حكيم العرب فى الجاهليـة، وأحد عظمائها المعدودين، فلا غـرو أن يرث يحيـى عنه ما عرف به من البراعة والكياسـة، ولا غـرو أن يشـذ عما وقع فيه أهل السـنة فى عصـره من التزمت فـى الديـن، والنفرة مـن التجديد والمجددين؛ ويضـع يده فى يد المأمون، ولا ينفره منه ما نفر متزمتى مذهبه من مناصرته للفلسفة والمتفلسفين.

كان الإمـام يحيـى فقيها عالمًا بالفقه، بصـيرًا بالأحكام، ذكره الإمـام الدار قطنى فـى أصحاب محمد بن إدريس الشـافعى، قال الإمام الخطيب فى كتابه (تاريخ بغداد): كان يحيى بن أكثم سليما مـن البدعة، ينتحل مذهب أهل السـنة، سمع عبد الله بن المبارك، وسفيان بن عُيَيْنَة، وغيرهما، وروى عنه أبو عيسى الترمذى وغيره. وقـال فيه طلحة بن محمد: يحيى بـن أكثم أحد أعلام الدنيا، وقد اشـتهر أمره، وعرف خبره، ولم يسـتتر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعلمه ورياسـته وسياسـته لأمره وأمر أهل زمانه من

الخلفاء والملوك، واسع العلم بالفقه، كثير الأدب، حسن المعارضة، قائم بكل معضلة.

وهـذه ثقافة واسـعة جمع فيها بين علوم الدنيـا وعلوم الدين، وأهل فيها نفسـه للعلم والعمل فلم يكـن مثل علماء عصره من قصر أنفسـهم علـى العلم وحده، وعجزهـم عن القيام بعمـل من أعمال الدولـة، ومثل هذا يورث صاحبه مرونة فى الدين، وميلا إلى النظر فى جميع العلوم، ولا سـيما العلوم الفلسـفية التـى لا قيمة لثقافة عـالم مع جهلهـا. وكان هذا مما قرب بينه وبـين المأمون، وجعله يميل إلى الاتصـال به، ليؤيده فى حكمـه، ويناصره على خصومه مـن أهل الجمود فى الديـن، مع اعتدال يضرب بـه أروع مثل فى الخصومات الدينية المحتدمة فى عصره، ويجعله حمامة سلام بين الفرق المتخاصمة فى الدين والسياسية، مما يرفع من شأنه فى تقدير حرية الرأى فى هذا العصر.

وكان اتصاله بالمأمون حين أراد أن يولى رجلا على القضاء، فوصفه له بعض من يعرفه، فاستحضره إلى مجلسه، فلما حضر دخل عليه وكان دميم الخلقة فاسـتحقره لذلك، فأدرك ما قام بنفسه وقال له: يا أمـير المؤمنين، سـلنى إن كان القصد علمى لا خلقى. فسـأله عن المسألة المعروفة فى الميراث بالمأمونية، وهى: أبوان وبنتان لم تقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين وخلفت من فى المسألة، فلما سأله المأمون عنها قال له. يا أمير المؤمنين، آلميت رجل أم امرأة؟ فعرف المأمون أنه عرفها، وقلده قضاء الدولة.

فغلب يحيى على دولة المأمون، وعظم نفوذه فيها حتى لم يتقدمه أحـد عنده من الناس جميعًا، ولم يقتصر على تقليده قضاء القضاء، بل قلده تدبير مملكته كلها، فكان الوزراء لا يعملون فى تدبير الملك شيئًا إلا بعد مطالعته هو وأحمد بن أبى دؤاد من أئمة المعتزلة، وقد سـئل بعض البلغاء عنهما: أيهمـا أنبل؟ فقال: كان أحمد يجد مع جاريته وابنته، وكان يحيى يهزل مع خصمه وعدوه.

كانت ليحيى إذن نفس نبيلة سمحة مرحة مثقفة أوسـع ثقافة، وكان مـع هذا محافظًا علـى مذهب جماعة أهل السـنة، ولكن فى حرية دينية واسعة تليق بما وهب من هذه الخصال الكريمة، لا بما عرف عـن جمهور أهل مذهبه من التزمت الدينى فى ذلك العصر، وكانـوا قد بالغوا فيـه إلى حد أن حرَّموا النظر فى علم الكلام، لأنه تورد فيه شـبه خصوم الإسلام، مع أنها تورد فيه لإبطالها، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم.

وقـد أفاد يحيى بهذه الحريـة الدينية مذهب أهل السـنة مع المأمون بما لم يفده معه المتزمتون منهم فى الدين، فقد تشـددوا مع المأمون حتى حكموا بكفره لأخذه بمذهب الفلاسـفة، فقابل شدتهم بأشد منها، وجرى له معهم من المحن ما لا محل هنا لذكره.

أما يحيى فكان حمامة سـلام بين المأمون وهذه الفرق المتشـددة فـى الدين إلى حد التخاصم، يجمعهم لـه لينظروا فى خلافهم بما تقضـى به الحرية الدينية من أخذ الأمـور الدينية الخلافية بروح

التسامح، والخضوع فيها لدليل العقل والنقل، وعدم أخذها بالعنف والتعصب، حتى لا يكفر بعضهم بعضًا أو يُفَسِّقُهُ، ويئول بهم هذا إلى ما وقعوا فيه من التعادى والتخاصم.

ثم يأخذ المأمون فيما يخالف مذهب أهل السنة بما تقضى به الحرية الدينية من أخذ أمور الدين باللين، والبعد بها عن المهاترة والتخاصم، فيستجيب له المأمون حين يأخذه بالدليل، لا بما يشبه الإكراه من وسائل الجامدين فى الدين.

ولنذكر من هذا مثالين:

١- كان ثمامة بن أشرس وغيره من زعماء المعتزلة الذين أججوا هم والمتشددون من أهل السنة نار فتنة دينية شديدة بين المسلمين قد زينوا للمأمون أن يكتب بلعن معاوية بن أبى سفيان، ليمضوا فى هذه الفتنة العمياء، ويشغلوا المسلمين بهذه التوافه التى لا تفيدهم فى دينهم ولا فى دنياهم.

فهمَّ المأمون أن يكتب بذلك كتابا يقرؤه الناس، فجفل العامة من ذلك، وكانوا على مذهب أهل السنة، وهم ينظرون إلى معاوية نظرة معتدلة، يذهبون فيها إلى أنه كان مخطئًا فى قتاله لعلى ﷺ، ولكنهم لا يجيزون لعنه، لأنه كان له فى هذا رأى اجتهد فيه فأخطأ، والمخطئ فى اجتهاده معذور، وكان على زعماء المعتزلة أن يكونوا أقرب إلى هذا من أهل السنة، لأنهم عرفوا بالتفكير الحر فى أمور الدين، ولكن يظهر أنهم كانوا على خلاف هذا فى أمور

السياسة، وكم فى ميادين الفكر من نقائض وغرائب، كهذا التناقض من المعتزلة فى اختلاف أمرهم فى أمور الدين والسياسة.

ولم يكن لهذه الفتنة الجديدة إلا يحيى بن أكثم، يعالجها بلباقته الدينية والسياسية، فينجح فى علاجها بهذه اللباقة، ولا يتناولها بما يتناول مثلها المتشددون من أهل السنة، فلم يعالجها بما تعالج بـــه العامة مثل هذه الأمور، بل عالجها بفكره الحر علاجا يسـمو على العامة وأشباه العامة.

وكان أن دخل على المأمــون فقال له: يا أمير المؤمنين، إن العامة لا تحتمل هذا، ولا سـيما أهل خراســان - وكانوا أمصار الدولة - ولا نأمــن أن تكون لهم نفرة، وإن كانت لم ندر ما عاقبتها؟ والرأى أن تــدع الناس على ما هــم عليه، ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق، فإن ذلك أصلح فى السياسة، وأخرى فى التدبير.

فعالج يحيى المسألة من ناحيتها السياسية علاجًا حرًا يعلو على ما كان ســائدا بين أهل عصره من التعصب الدينى، وأتى المأمون من الناحية التى يكون لها أثرها فى نفسه، فلم يكن منه إلا أن ركن إلى رأى يحيى وارتــاح له، وترك رأى أولئك المعتزلة الذين لا يقدرون حرية الرأى، بل يريدون أخذ الناس بالإكراه والعنف.

٢- حــدث محمد بن منصور قال: كنا مع المأمون فى طريق الشــام، فأمر فنودى بتحليل المتهة - نكاح المرأة إلى أجل - فقال يحيى ابــن أكثم لى ولأبى العيناء: بكِّرا غــدا إليه، فإن رأيتما للقول

وجها فقولا: وإلا فاسكتا إلى أن أدخل. قال: فدخلنا عليه- على المأمون- وهو يستاك، ويقول وهو مغتاظ. متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ، وعلى عهد أبى بكر ﷺ، وأنا أنهى عنهما! ومن أنت يا جُعَلُ[1] - يعنى عمر بن الخطاب - حتى تنهى عما فعله رسول الله ﷺ، وأبو بكر ﷺ؟

قال محمد بن منصور: فأومأ إلىَّ أبو العيناء وقال: رجل يقول فى عمر بن الخطاب ما يقول نكلمه نحن. فأمسكنا حتى جاء يحيى بن أكثم، فجلس فجلسنا.

فقال المأمون ليحيى: مالى أراك متغيرا؟

فقال يحيى: هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث فى الإسلام.

فقال المأمون: وما حدث فيه؟

فقال يحيى: النداء بتحليل الزّنا.

فقال المأمون: آلزنا؟

فقال يحيى: نعم، المتعة زنا.

فقال المأمون: ومن أين قلت هذا؟

فقال يحيى: من كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله ﷺ، قال الله تعالى[2] ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤

(١) الجعل الأسود الدميم.

(١) سورة المؤمنون، من الآية ١ إلى ٧.

وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ ايا أمير المؤمنين، زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا. قال: فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث وتُلحق الولد، ولها شرائطها؟ قال: لا. قال. صار متجاوز هذين من العادين. وهذا الزهرى يا أمير المؤمنين، روى عن على بن أبى طالب: «أمرنى رسول الله ﷺ أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها».

قال محمد بن منصور: فالتفت إلينا المأمون فقال: أمحفوظ هذا من حديث الزهرى؟ فقلنا: نعم، رواه جماعة، منهم مالك ﷺ. فقال: أستغفر الله، نادوا بتحريم المتعة. فنادوا بها، وكان ليحيى بهذا يوم فى الإسلام لم يكن لأحد مثله.

ألا ليت المتشددين الجامدين من أهل الفرق الإسلامية كانوا على طراز هذا الإمام الحر السمح فى الدين، فوضعوا مثله أيديهم فى أيدى المأمون، ولم يحاربوا الفلسفة وعلومها، ويعملوا بهذا فى إضعاف نهضة المسلمين من حيث لا يشعرون.

وكانت وفاة يحيى بن أكثم سنة ٢٤٣هـ - ٨٥٧م.

* * *

(٦) أبو العلاء المعرى

هـو أحمد بن عبد الله بن سـليمان المعرى التنوخى، نشـأ ببلدة معـرة النعمان بالشـام، وكـف بصره من الجدرى وهو فى السـنة الثالثة من عمره، ولما شـب أخذ العلوم التى كان يشـتغل بها أهل عصره على بعض علماء بلده، ثم رحل إلى طرابلس الشـام ليستزيد من العلم، وكانت بها دار علم بها خزائن كتب وقفها أهل اليسـار مـن أهلها، فمر فى طريقه إليهـا باللاذقية، ونزل دير الفاروس، وكان به راهب يشـدو شـيئًا من علوم الأوائل، فسمع منه كلاما من أوائل أقوال الفلاسفة، ثم استقر فى طرابلس وأتم دراسته بها.

وكان أبو العلاء نسـيج وحده فى الـذكاء والفهم وقوة الحافظة، فحصل على علم غزير، وتثقف بثقافة واسـعة، حتى اتفق محبوه ومبغضـوه على أنه كان وافـر البضاعة من العلـم، غزير المادة فى الأدب، حاذقا بالنحو والصرف، أعجوبة العجائب فى اللغة وحفظ شواهدها، ومعرفة غريبها وأسـرارها ودقائقها، وهذا إلى براعته فى صناعتى الشعر والنثر.

وكان مـع هذا كله يمتاز على أهـل عصره جميعا بفكر حر قوى جرىء، فجمع بهذا بين واسـع الثقافة العلمية. والحرية الفكرية القوية، وقد ظهر فى القرن الخامس الهجرى، والمسلمون فى ظلمة

حالكة بعد تنكرهم لدعوة الحرية التى أخذهم بها الإسلام، فوقعوا فى برثن أرباب الطغيان من الحكام ، وأصحاب الجمود الفكرى من رجال الدين، حتى وصلوا إلى أسوأ حال ، وبعدوا كل البعد عن دعوة الإسلام إلى التحرير الدينى والسياسى والعلمى.

فقام أبو العلاء وحده يدعوهم إلى هذا التحرر بكل ما يملك من قوة فكرية ولسانية، وبكل ما وهبه الله من شجاعة فى الرأى، لا يخاف فى هذا بطش الحكام المستبدين، ولا سطوة أصحاب الجمود من رجال الدين، ويساعده على هذا نفس عازفة عن الشهوات، مؤثرة للعزلة عن الناس، حتى لا تطمع فى حاجة عندهم، فتجعله يأخذ بشىء من المداواة فى دعوتهم إلى هذا التحرر الدينى والسياسى والعلمى.

وبلغ من أمره فى هذه العزلة أنه أقام فى منزله لا يفارقه أصلا، بل جعل منه محبسًا له، وسمى نفسه رهين المحبسين: العمى والمنزل. وكان له وقف يغل عليه فى السنة ثلاثين دينارًا، فكان يعطى نصفها لمن يخدمه، ويبقى نصفها الآخر لمئونته، فاقتضى هذا منه أن يقتصر على خشن الملبوس والمأكل، ويأخذ نفسه بالزهد فى ملاذ الدنيا حتى لا تكون فى حاجة إلى من قرعهم أشد قرع بدعوته التحررية، من الحكام ورجال الدين.

وتتجلى دعوته إلى التحرر الفكرى فى رسالته النثرية التى تسمى: (رسالة الغفران) وفى ديوانه الشعرى الذى يسمى: (لزوم

مـا لا يلزم)؛ لأنهمـا يحويان أهـم آرائه في نقـد عيوب مجتمع عصره، وإعلان فسـاد أهله على اختـلاف طوائفهم، وتعدد مللهم ونحلهـم، وكان لا يحابـي في نقده أحدًا، ولا يـداري فيه حاكما مستبدًا، ولا رجل دين جامدًا، بل يأخذهم بصراحة شديدة قاسية، لأن فسـادهم قد بلغ أقصى مداه، ووصل إلى حـد قضى على كل أثر للحرية الفكرية في الأمة.

ومن قوارعه التي ألقى بها في وجه الحكام الذين حكموا بالظلم، وفي وجه الأمة التي رضيت بهذا الحكم:

مـُلَّ المقام فكم أعـاشـر أمةً   أمرت بغـير صلاحها أمـراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها   وعدَوْا مصالحـها وهـم أجراؤها

ومن قوارعه أيضًا في الحكام:

يسوسون الأمـور بغيـر عقل   فينفذ حكمهم ويقال سـاسَةْ
فأفّ من الحيـاة وأف منهم   ومـن زمـن رياسته خساسَةْ

ومن قوارعه في رجال الدين:

رويْدك قد غررتَ وأنت حر   بصـاحـب حيلة يعظ النساءْ
يحـرِّم فيـكمُ الصهباءَ عمْدًا   ويشربها علـى عَمْـدٍ مـساءْ

ومن قوارعه رجال الصوفية:

لـو كنتمُ أهل صفـو قال ناسبكُمْ صفوية فأتى باللفـظ ما قـلبَا
جند لإبلـيس فـى بدليسَ آونةً وتارةً يحلبون العيش فـى حلبا [1]

ومن قوارعه فى الوعاظ:

لايخدعنَّك داع قام فـى مَـــلأ بخطـبة زانَ معـناها وطـوَّلـها
فما العظاتُ وإن راعت سوى حيلاً من ذى مقال على ناس تقـوَّلها

ومن قوارعه فى الأدباء:

ومـا أدَّب الأقوام فـى كل موطنٍ إلـى المَيْن إلا معـشرٌ أدبـاء

ومن قوارعه فى الشعراء:

فرقًا شعرتُ بأنها لا تقتنى خيرًا وأنَّ شرارها شعراؤها

ومن دعوته الحرة إلى المساواة الاجتماعية بين الطبقات:

لا يفخـرنَّ الهـاشمى على أمـرئ مـن آل بـرَبـرْ
فالحـقُّ يحلـف مـا علـىٌّ عـنـده إلا كقـنبـر [2]

ومن دعوته إلى الاشتراكية فى المال:

لو كان لى أو لغيـرى قـدر أنملةٍ من البسـيطة خلتُ الأمـر مشتـركَا

---

(١) بدليس وحلب بلدان، والأولى محلة طيبة الماء والهواء فى أذربيجان ومنها المؤرخ البدليسى صاحب «شر فنامه».

(٢) يعنى على بن أبى طالب ومولاه قنبر.

ولقد ذهب هذا كله كصرخة في واد، ولم يتأثر أحد بهذه القوارع الشعرية، وإذا كان أبو العلاء قد سلم بنفسه منهم، فلأنهم رأوه رجلا ضعيفًا ضريرًا، ورأوه في عزلة قاسية لا يسمع صوته فيها إلا بعض خدامه ممن يؤمن جانبهم لندرتهم، ومع هذا لم يسلم دينه منهم، بل أشاعوا عنه أنه ملحد، ودسوا في شعره ما يثبت تهمتهم، ليصرفوا الناس عن السماع لدعوته إلى التحرر من استبدادهم وجمودهم.

ومما يدل على هذا ما روى عن المنازى الشاعر، أنه اجتمع بأبى العلاء فقال له: ما هذا الذى يروى عنك ويحكى؟

فقال له حسدنى قومى، فكذبوا علىَّ، وأساءوا إلىَّ.

فقال المنازى على ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدينا والآخرة، فقال له: والآخرة أيها الشيخ؟ منكرًا لهذا منه، ومتألما لسماعه أشد الألم، وإن هذا ليكفى فى براءته منه.

وكانت وفاة أبى العلاء سنة ٤٤٩هـ - ١٠٥٨م.

* * *

(٧) ابن رشد

هـو الفيلسـوف الفقيه محمد بن أحمد بن رشـد، وقد اشـتهر بالنسـبة إلى هذا الجد، ويقال له ابن رشد الحفيد تمييزًا له عنه، وهو الـذى أحيا من علوم الفلسـفة فى الأندلـس والمغرب ما قضى عليه الجمود والتعصب عليه المشـرق، ويمتاز على غيره من فلاسفة المسلمين بجمعه بين علوم الفلسفة وعلوم الدين، حتى كانت شهرته فى علم الفقه وما إليه لا تقل عن شـهرته فى علوم الفلسـفة، وكان صاحـب عقلية دينية حرة ممتازة، تلاقت فيـه علوم الدين وعلوم الفسفة، وكان فيها أكبر برهان على أنه لا عداء بين الفلسفة والدين.

وكان ابن رشـد قد نشـأ بقرطبة فى عهد دولة الموحدين، وعلى عهد أبى يعقوب يوسـف بن عبد المؤمن من ملوكها، وكان له فضل على الفلسـفة فى المغـرب، مثل فضـل المأمون من العباسـيين فى المشـرق، وهذا هو الذى مكن لابن رشـد من دراسـة علومها، وقد تعمق فى دراسـتها حتى كان أكثر فهما لها ممن سبقه من فلاسفة المسـلمين، ولهذا أطلق عليه فلاسـفة أوربا فى أوائل عصر النهضة لقب الشـارح، وقال بعضهم ألقى أرسـطو على كتـاب الكون نظرة صائبة، ففسره وشـرح غامضه، ثم ألقى ابن رشد على كتب أرسطو نظرة صائبة، ففسرها وشرح غامضها.

وكان أبـو يعقوب يوسـف بن عبـد المؤمن قد أخبر الفيلسـوف ابن طفيـل - وكان طبيبا لـه - بأنه فى حاجة إلى فيلسـوف ذكى يشـرح كتب أرسطو، فدله على ابن رشـد، فأحضره وطلب منه أن يقوم بشرح جديد لهذه الكتب، فقام بشرحها على ما طلب، وكانت شـروحه لها أقرب إلى فهمها ممن سـبقه، فعـرف له أبو يعقوب هذا الفضل، وقربه من مجلسـه، واتخذه طبيبـا له بدل ابن طفيل حينما أدركه عجز الشـيخوخة، ثم ولاه قضاء قرطبة، فكان وحده الفيلسـوف المسـلم الذى ولى هذه الوظيفة الدينيـة، ليكون فى هذا دلالة رسمية على أنه لا عداء بين الفلسفة والدين.

ولما مات أبو يعقوب تولى بعده ابنه أبو يوسـف المنصور، فتغلب الجامـدون عليه من رجال الدين، وكرهوه فى الفلسـفة وعلومها، وأوغروا صدره على ابن رشد لاشتغاله بها، فنفاه إلى بلدة قريبة من قرطبة تسمى «أليسانة» يسكنها فريق من يهود الأندلس فاتصلوا به وأخذوا الفلسـفة عنه. وتداول تلامذته منهم علومها بينهم. حتى نقلوهـا إلى أهل أوربا فى أوائل عصـر النهضة،فعرفوا لها فضلها، وانتفعـوا فى نهضتهم بها. ولم يتنكروا مثل المسـلمين لها، حتى وصلـوا إلى هذه النهضة الحديثة، وأخذ المسـلمون يتقهقرون حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التأخر.

وقـد بذل ابن رشـد جهدًا كبـيرًا فى إزالة ما رسـخ فى نفوس المسـلمين من بغض لعلوم الفلسـفة، وكان لكتاب الغزالى: (تهافت

الفلاسفة) أثر كبير فى بغضهم لها، فرد عليه بكتاب سماه: (تهافت التهافت) انتصر فيه للفلسفة وعلومها، وخطأ الغزالى فى تكفيره لفلاسفة المسلمين، وأثبت أنهم مجتهدون يثابون إذا أصابوا، ويعذرون إذا أخطأوا، ولا يصح الحكم بكفرهم على خطئهم فيما خطأهم الغزالى فيه، من القول بقدم العالم ونحوه.

ثم أيد هذا بكتاب سماه: (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) فدل به على عقلية ممتازة وصلت إلى درجة كبيرة من التحرر الفكرى، ولكن صرخة كانت بين المسلمين كصرخة فى واد أيضًا، فمضوا على بغضهم لهذه العلوم، ولم يسمعوا لهذه الصرخة القوية الحرة.

وكانت وفاة ابن رشد سنة ٥٩٥هـ - ١١٩٨م.

* * *

(٨) نصير الدين الطوسى

هو الفيلسوف المتكلم محمد بن محمد بن الحسن المعروف بنصير الدين الطوسى، نشأ ببلدة طوس فى القرن السابع الهجرى، واشتغل بالفلسفة وعلوم الدين، وجمع فيما جمعه بين الفلسفة وعلم الكلام، كما جمع ابن رشد فيما جمعه بين الفلسفة وعلم الفقه. وكان فى عصره رأسا فى علوم الفلسفة، ولا سيما فى المجسطى والأرصاد، فإنه فاق فيها الكبار، وأربى فيها على غيره، حتى كان نادرة فى هذا العصر الذى وصل فيه المسلمون إلى الحضيض بسبب ما صاروا إليه من الجمود فى العلوم، وكرههم للنظر فى العلوم الحرة التى تنهض بهم، فكان نصير الدين الطوسى وحيد عصره فى هذه العلوم التى لا غنى لأحد فى الدنيا عنها.

وكانت فى هذا العصر نكبة المسلمين بالتتر، فاستولى هولاكو بن تولوى بن جنكيز خان على بغداد سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م، فبلغ اليأس فى نفوس المسلمين ما بلغ، ولم يعرفوا ما يفعلون مع هؤلاء الطغاة الوثنيين الذين ابتلى بهم الإسلام إذا صح هذا التعبير، لأن الإسلام ودعوته الناهضة الحرة كانا قد ودعا المسلمين منذ عهد بعيد قضوه فى جمودهم.

فلم يدر هذا الجمهور الجامد من المسلمين ماذا يفعل؟ لأن الرجعى الجامد فى عقله المغلق يكون أقرب شىء إليه فى مثل هذه

النكبـــة الوقوع فى الحيرة واليأس، ولو ترك هذا الجمهورالرجعى فى الاستســلام لليأس لكان ما لا تحمد عقباه للإســلام والمسلمين، وكانت نهايتهم قريبة فى هذه البلاد التى كانت منزلتها من البلاد الإسلامية منزلة القلب من الجسم.

فلــم يكن لهــذه النكبــة إلا تلك العقليــة الحرة الكبــيرة، عقلية الفيلســوف الكبير نصير الدين الطوســى، لأن ذلــك الطاغية الكبير - هولاكــو - لم يلبث حتى عرف أنه فى حاجــة إلى هذه العقلية الحرة الكبيرة، لأن التتر لم يكونوا فى شــىء من العلوم، فاحتاج هولاكو إلى هذه العقلية التى لم يكن لها نظير فى عصرها، ومد يده إلى نصير الدين الطوســى ليدبر له هذه المملكة الواســعة. واتخــذه وزيرا له وحكيما، واصطفاه ناصحا له ومشــيرا، وأراد الله بهذا ما أراد من الخير للإسلام والمسلمين، فمد نصير الدين الطوسى يده إليه كما مد يده إليه، ولم يقعد به الجمود كما قعد بأولئك الجامدين، لا يدرون ماذا يفعلون؟

فدبر نصير الدين لهولاكو أمور مملكته، واســتغل حاجته إليه فى نفع الإســلام والمســلمين، فأخذ يجمع ما نهبه التتر من الكتب الإســلامية بعد ســقوط بغداد، وابتنى لها خزانــة عظيمة بمدينة مراغة، كانت تحتوى على أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ مجلد، ولولا اهتمامه بجمعها لتلفت عند أولئك التتر، لأنهم كانوا لا يعرفون قدرها.

ثــم أراد أن يبنى رصــدا عظيما بمدينة مراغــة، فأقنع هولاكو بفائدتــه، حتى بذل فى بنائه ما لا يحصى من الأموال، وكان الذى يقوم ببنائه مع نصير الدين الطوسى جماعة من حكماء المسلمين.

ولا شك أن هذا ونحوه من نصير الدين الطوسى كان له أثره فى نفوس أولئك التتر، من رفع منزلة المسلمين فى نفوسهم، وتوجيههم إلى النظر فى دينهم وعلومهم ومعارفهم، إلى أن انتهى أخيرًا بفتح الإسلام لقلوبهم، فكان هذا أكبر من فتحهم لبلاده. لأن النصر كان له فى النهاية، إذ عادت هذه البلاد إسلامية كما كانت، وعادت دولتها إسلامية وإن كانت تترية، لأن الإسلام لا يفرق بين عربى وتترى، وكل مسلم عنده مساو لأخيه المسلم، فلا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح.

والفضل فى هذا كله لنصير الدين الطوسى، وإن كان أولئك الجامدون لم يعرفوا له هذا الفضل، لأنهم مضوا فى عدائهم لعلوم الفلسفة، وفى بغضهم للمشتغلين بها من نصير الدين الطوسى وغيره.

وكانت وفاة نصير الدين الطوسى سنة ٦٧٢هـ - ١٢٧٣م.

* * *

خاتمة

هذه هى بعض الأسماء اللامعة فى تاريخ الفكر الإسلامى الحر، اخترتها على قصد من بين الأسماء اللامعة فى هذا التاريخ المشرق، لتقاربها فى هذا التفكير الذى نهض بالأمة الإسلامية، وكان منه فى تاريخها ناحية مشرقة مضيئة، وهى التى نفخر بها اليوم إذا رجعنا إليها وتجعل لنا ماضٍ يشرفنا ذكره، ويحفظ لنا كياننا فيما يحفظه من تراثنا ولا يمكن ذوى الأغراض السيئة من مطامعهم فى إفناء شخصيتنا فى شخصيتهم، كما تمكنوا من إفناء الشخصيات التى لم يكن لها ماضٍ كهذا الماضى المجيد لنا.

فقد اشتركت هذه الأسماء اللامعة فى العمل على أن يكون للأمة الإسلامية حضارة واسعة تأخذ من جميع الحضارات، وثقافة واسعة تأخذ من جميع الثقافات. وجاهدت بتفكيرها الحر من وقفوا فى سبيلها من الجامدين المتزمتين فى الدين، حتى تمكنت بعد جهاد طويل شاق من غايتها فى تكوين هذه الحضارة والثقافة.

وإنى لفرح باختيارى لهذه الأسماء اللامعة، وبالتعريف بها لمن لم يكن يعرف لها هذا الفضل الكبير على الأمة الأسلامية، وبالتنويه بتفكيرها الحر القوى الجرىء وبالتنبيه على مقدار ما أصاب المسلمين من التأخير بالتنكر لهذا التفكير، وعلى ما كان

لــه من أثــر فى نهضة أوربا حين عرفت فضلــه، ولم تتنكر له كما تنكرنا له.

وهذا ابن رشــد من بينهم، هل كان يليق بنا أن ننســاه وتعرفه أوربا؟ فيكون له تلاميذ فيها ينشرون فلسفته فى أقطارها، ويسيرون على ضوئها فى ركب الحضارة الذى تخلفنا عنه، حتى وصلوا بعلوم هذه الفلسفة إلى ما وصلوا إليه.

وكان الأجدر بنا أن يكون له تلاميذ بيننا مثل هؤلاء التلاميذ فى أوربا وأن يكون له مدرسة تعمل بعده على النهوض بنا كمدرسته فى هذه القارة، ولقد كان أولى بهذه المدرســة من بعض قدامى المصلحين الدينيين فينا، ممن بقيت له مدرسة متصلة التاريخ بعده، فلم يكن لها فينا مثل أثر مدرســة ابن رشــد فى أوربا، لأنهــا كانت ذات طابع دينى محض، ولم يكن طابعها دينيا مدنيا مثل طابع مدرســة ابن رشد.

وإنى فى النهاية مكرر شكرى للأستاذ الكبير محمد عبد الغنى حســن على توجيهه الذى أتاح لى اختيار هذه الأسماء اللامعة، إذ اقترح زيــادة هذا الفصل – بعض أحرار الفكر فى الإســلام – على فصول هذا الكتاب.

فلــه الفضل كل الفضل فى هذا التوجيه الكريم، بل له الفضل كل الفضــل فى اختيار موضوع هذا الكتاب – حرية الفكر فى الإســلام وفــى اختيارى للكتابة فى هذا الموضوع. وفى الاعتراف بهذا بعض ما يستحقه من الشكر على فضله فى هذا الكتاب أولا وأخيراً.